

الفصل الأول

التحدى الصهيوني

مثلت إسرائيل ورطة حقيقية للعرب إذ اغتصبت أحد أوطانهم واستنزفت الكثير من مواردهم وكبرياتهم ودفعت بهم إلى صراع دموي كان محتما خوضه في محاولة لاستعادة الكبرياء والأرض معا رغم عدم استعدادهم له، بل وقبل أن يتأكد حتى مجرد استقلالهم عن الغرب نفسه الذي سعى إلى توريث أراضيهم لليهود تكفيرا عن خطاياهم التاريخية ضدهم ومواقفه العنصرية منهم وهي المواقف التي بلغت ذروتها إبان الحرب العالمية الثانية ومع الإضطهاد النازي الذي جعلهم بالسلب "تكوين لا تاريخي" وذلك قبل أن ينقلب الموقف الغربي من اليهود على نفسه دورة كاملة فيتحول إلى النقيض ويجعل منهم أيضا "تكوين لا تاريخي" ولكن بالإيجاب هذه المرة يتمتع باستثنائية في التعامل مع كل الأجناس وعلى حساب كل الأمم وعلى رأسهم العرب المسلمين الذين كانوا أكثر الثقافات الإنسانية تسامحا مع اليهود طوال التاريخ منذ قبل المسلمون الأوائل وجود اليهود في المدينة المنورة وأحسنوا التعامل معهم باعتبارهم أهل كتاب، وعندما احتضنهم مسلمو الأندلس فعاشوا في رحابهم إحدى أفضل مراحل تاريخهم حيث لمع أبرز فلاسفتهم ووصل بعضهم إلى مناصب سياسية غير مسبقة ولم يعانون الاضطهاد إلا من المسيحيين عندما سقطت الأندلس حيث كانوا يذبحون ويطردون مع المسلمين ومثلهم تماما، وكذلك في الخلافة العثمانية، بل وحتى عندما تشكلت عقيدة القومية العربية، فقد احتفظت بتراث التسامح العربي - الإسلامي مع اليهود ولم يتوقف هذا التسامح بميلاد الحركة الصهيونية ثم قيام إسرائيل الدولة بل أنه استمر مع اليهود العرب حتى حرب السويس على الأقل ولم ينظر لليهود في مصر مثلا على أنهم إسرائيليون وصهاينة بالضرورة حتى بدأوا هم أنفسهم

بإعادة تكييف هويتهم ثم الهجرة إلى إسرائيل وخاصة بعد العدوان الإسرائيلي المشترك مع بريطانيا وفرنسا على مصر العربية.

ويذكر التاريخ الثقافي لمصر أن كثيرا من اليهود عاشوا لفترة طويلة على قمة الهرم الاجتماعي وكجزء طبيعي من نخبته حتى نهاية الخمسينات. ويشير الأستاذ جلال الشرقاوي المخرج المصري الكبير إلى مثال صارخ بالدلالة في مذكراته التي نشرتها جريدة "القاهرة صيف ٢٠٠٠م وهو أن "بديع حسني" ابن الفنان اليهودي "داود حسني" الذي أحب المصريون فنه العذب ولا تزال أعماله جزءا طبيعيا من تراثنا الفني، كان في الوقت نفسه أعز أصدقاء جلال الشرقاوي الذي لم يكن يدرك يهودية صديقه لأنه لم يكن ليهتم بمجرد التساؤل حولها. حتى فوجئ بهجرة صديقه علم ١٩٥٦م بعد حرب السويس مباشرة بينما كان المخرج المصري مجندا بالجيش. وافترق الصديقان زمنا طويلا اقترب من ربع القرن حتى جاء "بديع حسني" إلى مصر عام ١٩٧٧م مع الوفد الإسرائيلي لمحادثات السلام التي جرت بفندق مينا هاوس، فإذا بالصديق القديم "ابن الحارة المصرية" يتصل بالفنان المصري ليقدم له نفسه هذه المرة "كإسرائيلي" أي "كآخر" يفرض لقائهما معا كبخ جماح النفس المتفجرة بالمرارة إزاء دماء أريقت، وليس استدعاء أحاديث الصباء وأهازيج الشباب التي كانت في الذاكرة قد تشوهت.

بل ويمكن القول أيضا بأن تطور رؤية القومية العربية في اتجاه تضال قدرتها على التمييز بين اليهودية والصهيونية قد ارتبط بتطور مواز في رؤية اليهود كما عبر عنها الأدب العبري للأحر العربي من مرحلة ما قبل قيام الدولة وربما حتى يونيو ١٩٦٧م إلى المرحلة التالية على هذا التاريخ؛

ففي المرحلة الأولى كان الأدب العبري لدى أبرز رواده أمثال "أحد هعام" أكثر إنسانية ووعيا بالمآزق الكامن في صعوبة، وأيضا ضرورة

التعامل مع الوجود العربي في فلسطين مؤكدا في البداية على "حقيقة" هذا الوجود ومحدرا من سذاجة دعوى غيابه ومنتها في الغالب إلى دعوة للتعايش مع العرب كانت تستبطن شعورا عميقا بالذنب. وهو اتجاه يستمر لدى أديب آخر مثل "موشية سميلانسكي" عاش ميلاد الدولة الإسرائيلية وشعر بالمرارة إزاء قمع الفلسطينيين وهي مرارة دعتة للتساؤل المستمر حول مصير علاقة اليهود بالعرب وهو تساؤل كان مغلفا بأمنية التعايش.

وأما الثانية فقد شهدت هيمنة متنامية للتيار الأكثر عنصرية وغرورا ربما تحت سطوة الإعجاب بالإنجازات العسكرية الإسرائيلية التي دفعت الوعي الإسرائيلي لتصور إمكانية العيش الآمن على أجساد العرب حيث بقاء الدولة صار حتما، وتعملقها صار هدفا فأخذ الأدب العبري يجاري هذه النزعة منفصلا عن دعوة التعايش نازعا إلى دعاوى الفصل والنبذ كما تتجسد عند عاموس عوز مثلا في كثير من أعماله التي تربط بين العربي وبين الفقر والجهل والبدانة التي تهدد المدينة الإسرائيلية بالتوحش.

وهكذا يمكن القول بأن الموقف العربي من اليهود كان أخلاقيا تماما سواء في القبول بحقهم في الوجود الإنساني داخل التاريخ العربي وفي نسيجه الطبيعي، إذ لم تعرف مجتمعاتنا العربية الإسلامية قط ما يسمى "بالمسألة اليهودية"، أو بالرفض المنطقي لمحاولتهم الصهيونية هناك حرمة هذا التاريخ أو تفكيك نسيجه حتى وأن كلفهم هذا الرفض خوض هذا الصراع الاجتماعي الممتد الذي تبدو فيه إسرائيل كمولود تاريخي لقيط وأناي تدفعه أنانيته إلى العدوانية وإلى القمع المستمر للإنسان الفلسطيني ومشاهدته لروايته الإنسانية يعيدها التاريخ مصورة أمام عينية من جديد في دراما إنسانية أكثر مأساوية يزيد من تعقيدها ويعيد إنتاجها باستمرار هاجس الأمن وعقدة الخوف التي غالبا ما تصاحب كل كائن لقيط لا يجد لنفسه صكوك نسب إلى الزمن حيث تصبح القوة، مع المبالغة في

إظهارها، هي الوثيقة الرئيسية وصك النسب الوحيد الذي يحول هذا الكائن إلى ملاكم في حلبة يلاكم دائما خوفا من الهزيمة / العدم في كل جولة رغم انتصاره في الجولة التي سبقتها لأنه لا يمكن أن يثق، ليس فقط في خصمه، وإنما أيضا في الحكم / التاريخ، وكذلك في قواعد اللعب التي تجعله محدودا بزمن لا بد وأن ينقضي.

أولا: سمات الأيديولوجية الصهيونية

تكرست العدوانية الإسرائيلية كنتيجة للطبيعة المعقدة للحركة الصهيونية والتي تمكنت من انشائها كدولة إستيطانية عنصرية في تجربة نادرة على صعيد عمليات بناء الدول استلهاها لإيديولوجيا سابقة، وجاهزة، وغائبة تنصب في مقولات رئيسية ثلاثة تسعى إلى إعادة وصف وتركيب علاقة الفرد اليهودي بالعالم الخارجى، ثم علاقته بفكرة الوجود اليهودي الكلى، ثم علاقة هذا الفرد والوجود الكلى معا بالأرض العربية على نحو يجعل الحل متضمنا في الوصف نفسه ومنبثقا على نحو منطقي صوري عنه.

— ففيمما يتصل بالعلاقة الأولى: علاقة الفرد اليهودي والأقليات اليهودية بالعالم الخارجى تتجه المقولة الصهيونية الأولى إلى وصف مشكلة اليهود في المجتمعات الإقطاعية وصفا معاديا للطريقة العلمية النسبية فى إدراك وقائع التاريخ وقياسها فتسعى إلى تصوير هذه المشكلة على أنها مشكلة أبدية أزلية غير قابلة للتحويل أيا كانت مرحلة التطور الاجتماعى البشرى، فهي مشكلة نابعة من غريزة بشرية إختص بها البشر من غير اليهود تسمى بـ "معادة السامية". وعلى هذا الأساس يصبح سوء النية والعداء والتربص باليهودى صفات أزلية أصيلة فى غير اليهود تدفعهم إلى الفتك باليهودى والتتكيل به مع أول فرصة تتاح لذلك وبالتالي يصبح الحل فى نظر المقولة مكونا من شقين:

أولهما أن ينفصل اليهودى عن المجتمعات غير اليهودية ويتجمع مع سائر اليهود فى إطار خاص يضمهم ويحميهم.

وثانيهما أن يتخلى اليهودى عن موقفه المسالم وأن يتسلح بالعنف ويبادر به كنوع من الوقاية التى تقطع الطريق على الآخرين محاولة السبق الى إغتياله.

— وفيما يتصل بالعلاقة الثانية، علاقة اليهودى الفرد بالوجود اليهودى الكلى، فإن المقولة الثانية تتجه الى وصف وجود الأقليات اليهودية فى المجتمعات المختلفة وصفا يجافى وضع هذا الوجود التاريخى. وهنا يصبح هذا الوجود المتوزع إهدارا لما تسميه المقولة بالتاريخ اليهودى الواحد، ونفيا وشتاتا. وبالتالي يصبح الحل المنطقى ضرورة نفى النفى، ولم الشتات، وفى هذا يصبح الوجود اليهودى المتجمع بمثابة الذات العليا المطلقة التى يتحرك نحوها وفى سبيلها وجود اليهود كأفراد وجماعات، وبدون هذه الذات يفقد الفرد والجماعة مغزى وجودهما كيهود^{٢٢}.

— وفيما يتصل بالعلاقة الثالثة .. علاقة الفرد والوجود الكلى اليهودى معا بالأرض العربية فإن المقولة الثالثة تتخطى الواقع التاريخى الفلسطينى الذى يجزم بحق الشعب الفلسطينى فى أرضه باعتباره تجسيدا لخلاصة التطور السلالى والحضارى على هذه الأرض فى إمتدادها الزمنى البعيد. وتأتى هذه المقولة مستندة الى أسطورة دينية لتتشفى علاقة مطلقة الى الأبد تربط بين كل من ولدته امرأة يهودية وبين الأرض العربية برباط تسميه المقولة "حق الملكية التاريخى".

ولأن المقولة تستند الى أسطورة، وبناء الأساطير بطبيعته مطاط وقابل لإستيعاب أى إضافات أو زيادات فإن هذه المقولة تكتسب مطاطية ومرونة الأسطورة فى تحديد الرقعة الجغرافية التى تشملها أرض اسرائيل التاريخية^{٢٣}.

وفى هذا الإطار نجد أن الحركة الصهيونية سلكت فى ضدية حركة التنوير اليهودى التى كانت قد ازدهرت فى القرنين السابع، والثامن عشر فى قى قلب حدائة الغرب الأوروبى وبشرت بإمكانية تجاوز الماضى

اليهودى الإنعزالي والمنغلق والمتعصب، حتى تمكنت من هزيمتها تماماً
إذ عمدت:

أولاً: ليس الى استلهاهم خبرة التنوير الأوربى فى التعلم من التاريخ بقصد
عدم تكراره، ولكن الى تعمد تكراره الفج بل واستلهاهم أسوأ ممارساته
فى مواقفها من الفلسطينيين اليوم الذين يعانون من موجات متتالية
للتدمير والقتل الجماعى وخاصة فى مخيم جنين الذى ارتبط إسمه
بعمل قد تختلف الروايات العربية، والإسرائيلية على وصفه، ولكنه
سوف يبقى فى التاريخ عملاً من الأعمال "ضد الإنسانية" العربية.

وثانياً: ليس إلى تجاوز التاريخ الإنعزالي الاستبدادى لليهود، أو محاولة
تفتيت التناقض اليهودى مع الأغيار فى شتى المجتمعات التى يعيشون
فيها والتى جعلت منهم تكويناً لا تاريخياً بالسلب، بل إلى تجميع
ومركزة هذا التناقض فى جيتو جديد هو الأكبر فى التاريخ "إسرائيل"
يتغذى على الاستثنائية اليهودية الجديدة التى جعلتهم بالإيجاب تكوين
لا تاريخي لأنها تبنت ليس فقط حقهم فى "حياة إنسانية كريمة" داخل
تواريخهم الخاصة "الفرعية" والمتناثرة "فى جغرافيات وتراثات شتى
فى بلدان عديدة أوربية وغير أوربية وإنما أيضاً بمساندة طموحاتهم
"الصهيونية" التى تبناها "بعضهم" إلى خلق وابتداع تاريخ عام جديد
مثالي ومتجانس يضم كل اليهود ويتعالى على هذه التواريخ الفرعية
"الحقيقية" المتميزة استناداً إلى أساطير سواء كانت:

- تقليدية عن ماضٍ تليد تم اعتمادها كحقائق وشواهد تتجاوز
عصور الزمن الممتدة والفاصلة لتقع فى موقع قريب تصبح معه
الجذر المباشر لهذا التاريخ الجديد والمعاصر الذى ينهى تلقائياً
تاريخ آخر "واقعي" و"حي" للشعب العربى الفلسطينى الذى كان
وعلى عكس المقولة الصهيونية موجوداً وليس غائباً، مكافحاً غير
مستسلم بقدر ما أتاحت له ظروفه من وسائل وأدوات كانت تنتمى

تلقائياً إلى وجوده الطبيعي "الحي رغم ضعفه" وذلك في مواجهة وسائل وأدوات أرقى وأعنف كانت تنتمي اصطناعياً إلى الوجود اليهودي المحدود في فلسطين، وطبيعياً إلى الوجود اليهودي الحقيقي في الغرب وخاصة الأوربي.

- أو حديثة يأتي على رأسها الهولوكوست التي بالغ فيها العقل الصهيوني واستسلمت لها الثقافة الغربية لدرجة أنها قامت بعزلها عن نسقها المعرفي القائم على حرية البحث والتفكير والاعتقاد والتعبير رغم كونها واقعة إنسانية تاريخية متعينة يجب الشك فيها كما يمكن بحثها إما لنفيها أو للوثوق بحجمها الحقيقي واستخلاص نتائجها الموضوعية، وذلك استناداً إلى قوانين "معاداة السامية"، تلك التهمة التي تصيب في الحقبة المعاصرة - كل ناقد للسياسة الإسرائيلية أو الإيديولوجية الصهيونية فضلاً عن التاريخ اليهودي إذا كان غير يهودياً، أما إذا كان يهودياً فتهمته الجاهزة هي "اليهودي الذي يكره نفسه" وهو ما يعنى في الحالتين حرماناً اجتماعياً، وتهديداً وظيفياً، وربما اعتقالاً جسدياً. ومن ثم فإنها تمثل سيفاً مسلطاً على رقاب المؤرخين والمفكرين والسياسيين ومراكز الدراسات من دعاة الحل الانساني للصراع العربي - الاسرائيلي سواء كانوا من العرب وعلى منوال الهجوم الضاري الذي تعرض له مركز زايد وإصداراته وأنشطته الثقافية والذي قاده "المجلس اليهودي الأمريكي" و "جمعية محاربي التشهير" وطالب بتطبيق قوانين معاداة السامية وإنكار الهولوكوست على الجامعة العربية ومركز زايد الذي يتبعها والذي أدى في النهاية إلى إغلاق المركز نهاية صيف ٢٠٠٣م. أو كانوا غربيين من أمثال المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج الذي أدانته المحكمة العسكرية البريطانية بتهمة إنكار الهولوكوست لمجرد أنه شكك في الرقم المعلن لضحاياها والذي رآه مبالغاً فيه بشدة حسب

فحصه تاريخياً، والمفكر الفرنسي المسلم روجيه جارودى الذى عانى من الحصار الثقافى والاتهام الأخلاقى استناداً إلى قانون "جيسو" الذى يحرم إعادة التفكير أو الشك فى الرواية الصهيونية للتاريخ اليهودى والصادر فى يوليو "١٩٩٠م ليعيد فى فرنسا جريمة الرأى التى سادت عصر نابليون الثالث قبل أكثر من قرنين "١٨٨١م"، وهو القانون الذى كانت قد استخدمته جماعة "ليكرا" الصهيونية فى فرنسا لمحاكمته عندما اصدر بيانه الشهير "مجازر لبنان: معنى العدوان الإسرائيلى" والذى وقعه معه رجلا دين مسيحى هما: الأب ميشيل لولون، والقس إتيان ماتيو إنطلاقاً من مواقف سياسية حرة تلهمها النزعة الإنسانية وتغذيها روح العدل فى الأديان جميعاً.

وثالثاً : ليس إلى الاندماج فى النزعات الإنسانية والليبرالية ولكن إلى التحالف مع القوى المحافظة حتى أكثرها عنصرية طالما خدم ذلك مصالحها ولو كانت النازية نفسها. وبالرغم من أن العداء للسامية فى أوروبا قد ارتبط بالقوى المحافظة حيث كان التحالف اللاسامى — المحافظ واضحاً بإلهام الأفكار المسيحية الكلاسيكية فى عداء اليهود، وكذلك اليهودية الكلاسيكية فى معاداة المسيحية، وبينما ارتبط التيار المعادى للسامية بالقوى الليبرالية والتقدمية منذ الثورة الفرنسية، فإن الصهاينة لم يتركوا فرصة للتحالف مع المحافظين الأوروبيين كان ممكناً أن تؤدى لهم خدمة إلا وانتهزوها:

— فقد تحالف هرتزل مع الكونت فون بلهف الوزير اللاسامى فى عهد القيصر الروسى نيقولا الثانى أوائل القرن العشرين. كما عقد جابوتنسكى معاهدة مع بيبليورا الزعيم الأوكرانى الرجعى الذى ذبحت قواته ١٠٠ ألف يهودى ما بين عامى ١٩١٨م، ١٩٢١م. كما أن تحالفات بن جوربون مع اليمين الفرنسى المتطرف خلال

حرب الجزائر شملت بعض اللساميين المعروفين برفض اليهود داخل فرنسا وليس في إسرائيل^{٤٤}.

- ووصلت المفارقة الى أقصاها مع التّهلّيل الذي أبداه القادة والمفكرون الصهاينة لهتلر حين صعوده إلى السلطة لأنهم كانوا يشاطرونه الاعتقاد بتفوق "العرق" ومعارضة "اندماج" اليهود في أبناء العرق الأرى وذلك لتسهيل انتقال هؤلاء إلى إسرائيل الدولة التي كانت قد صارت لديهم حلما وشيك التحقق. بل وصل الأمر بحاخام يهودى كبير برز بعد ذلك كنائب لرئيس المؤتمر اليهودى العالمى بالولايات المتحدة هو دكتورة يواقيم برنز "إلى الثناء على هزيمة الديمقراطية مع بداية الحرب العالمية الثانية لأنها كانت تقود إلى اندماج اليهود في مجتمعاتهم معلنا تأييده للنازية التي هزمتها - قبل ١٩٤٢م - بقوله "إن دولة تقوم على مبدأ نقاء العرق والأمة لجديرة باحترام اليهودى"^{٤٥}. وهو قول يكشف عن منطق متسق مع ذاته إذ لا فرق بين الاسطورة القومية الألمانية الجرمانية القائمة على سمو العنصر الأرى والقائلة بألمانيا فوق الجميع، وبين الاسطورة العنصرية الصهيونية القائمة على سمو العرق اليهودى والقائلة بإسرائيل كمحور وعلامة التاريخ الالهى فى العالم.

ثانيا: الإيديولوجية الصهيونية وبنية الدولة الإسرائيلية

عندما ولدت الدولة الإسرائيلية كحالة نادرة على صعيد عملية بناء الدول، فإن علاقتها بالإيديولوجية الصهيونية ظلت رهينة لسمات خاصة بها ربما لا تتوافر لغيرها وأهمها:

السمة الأولى: ان نمط التفكير الصهيونى هو نمط غيبى من حيث أحكامه المطلقة التي تقضى بإلغاء التاريخ الحقيقى للأرض العربية من ناحية، وللجماعات اليهودية فى عوالمها المختلفة من ناحية أخرى،

والعودة الى نقطة زمنية سحيقة تجاوزها التاريخ المتعين بقصد فرضها من جديد على الأرض وأصحابها التاريخيين وعلى المجموعات اليهودية في نفس الوقت^{٦٦}. ومن ناحية ثالثة تقود الأزمات السياسية والعسكرية التي تواجهها الدولة على منوال حرب أكتوبر مثلا، والانتكاسة التي حدثت في جنوب لبنان الى تغذية النزعة الإحيائية نفسها في ظل رغبة نفسية تنزع الى قراءة هذه الأحداث في ضوء التوراة والتلمود وأساطيرهما عن الوعد والاختيار بقصد التثبيت بها والتيقن من وجود مستقبل للدولة الإسرائيلية.

ولا شك أن هذا النمط الفكري نمط أسطوري معاد للمنحى العقلاني في التفكير، وأن تمسكه بالطابع الديني للحياة أو رفضه له لا يعنى شيئا بالنسبة لحقيقته الأسطورية المعادية للعقل أى بالنسبة لحقيقته الصهيونية.

والثانية: ان بناء الإيديولوجية الصهيونية السائد في المجتمع الإسرائيلي سابق في وجوده على البناء الإجتماعي ذاته، الأمر الذي يعنى أن هذا المجتمع قد نشأ وتكون تحت مظلة إيديولوجية فلسفية سياسية تحكم وتضبط دينامياته الداخلية وتعمل على عزل أى بناء فكري معارض أو مناقض^{٦٧}، وربما لهذا السبب تمكنت هذه الإيديولوجية من الإنفراد بالعقل الإسرائيلي ودفعه نحو أحادية بالغة الإختزال كانت مانعة لكل تعددية ممكنة فظلت روايتها عن التاريخ الإسرائيلي هي المتحكمة به دون مما نعة تذكر حتى ثمانينات القرن العشرين التي شهدت تبلور توجهات فكرية جديدة على منوال "حركة المؤرخين الجدد"، وتوجهات سياسية مختلفة مثل توجه "ما بعد الصهيونية" الأكثر انفتاحا وتسامحا، أو حتى "الصهيونية الجديدة" الأكثر إنغلاقا وعنصرية.

والثالثة: ان بناء الإيديولوجية الصهيونية يستمد براهين إثباته ويكتسب قوة تصديقه فى المجتمع عبر الصياغة الفكرية الخاصة لوقائع وأحداث الصراع مع العرب سواء فيما يتعلق بمقولة العداء للسلامية التى تجد فى التفسير الخاص للعداء العربى إثباتا لصوابها .. أو فيما يتعلق بمقولة الشعب اليهودى الواحد التى تجد فى الهجرة متعددة الأجناس برهانا على صدقها، أو فيما يتعلق بمقولة الأرض التاريخية التى تجد فى استجابة الجغرافيا العربية الرخوة للفتوحات الصهيونية مصداقا لصوابها، وهى المقولات الثلاث الأساسية التى تكون البنية الجوهرية للإيديولوجية الصهيونية^٨.

أما السمة الرابعة: فهى ان المجتمع الصهيونى قد دخل فى مرحلة التبلور الإجتماعى فى شكل مجتمع رأسمالى استهلاكى وبدأت تنمو فيه ملامح الإستقطاب الطبقي بكل ما يترتب عليها من نمو ميول التمرد النفسى والإجتماعى وظهور أشكال متناقضة من الوعى الطبقي. وتتدعم هذه الميول بما يعانى به من حالة ارهاق نفسى عام كنتيجة لإستمرار الصراع العسكرى، والعيش تحت ضغط مستمر من التوتر وافتراد أحاسيس الطمأنينة. ولكن من دون أن تؤدى هذه الحالة - نتيجة لتحديد الخطر الخارجى وضآلته على نحو عام - الى إعادة النظر فى مناظير الرؤية الصهيونية للصراع وأصوله وأشكال حله^٩.

ولعل تلك التناقضات هى ما يتحسب له الأديب الإسرائيلى المرموق عاموس كينان فى روايته "الطريق إلى عين جالوت" الصادرة عام ١٩٨٣م والتى تحذر من سلبية تحولات المجتمع الإسرائيلى باتجاه الفاشية العسكرية حيث تواجه النخبة الإسرائيلية تحديات التنشيط العرقى والدينى والسياسى عبر ثنائيات: الاشكنازى - السفاردى، العلمانى - الدينى، اليمينى - اليسارى، الليبرالى - العنصرى، برفع وتيرة السلوك

العسكري والجنوح إلى المواجهة مع الآخر قطعاً للطريق على تفجر هذه التناقضات الداخلية وهو ما يغذى نزعة العسكره ويقود إسرائيل في النهاية إلى الإفلاس الأخلاقي والسياسي معا إذ لن تكون العسكره وحدها كافية على المدى البعيد لحل هذه التناقضات. هذه العسكره هي ما تقود حسب البروفيسور بنيامين كوهين الأستاذ بجامعة تل أبيب إلى "التصفية النهائية للفلسطينيين كشعب وللإسرائيليين كبشر".^{١٠}

ثالثاً: الصراع بين الصهيونية الجديدة.. وما بعد الصهيونية ..

لعل أحد المظاهر العميقة لتلك التناقضات يتمثل في ذبول الصهيونية الكلاسيكية كعقيدة قومية/حدثية ذات ملامح يسارية أنتجت دولة علمانية الجوهر وإن تعلقت بأساطير توراتية أدركت جاذبيتها السحرية. ونمو تيارين آخرين بديلان في المجتمع الإسرائيلي:

التيار الأول: هو تيار "ما بعد الصهيونية" الذي تلتقى أهدافه الأكثر إنسانية مع أهداف الإنسانية العربية، فهذا التيار يمثل رافداً ولو نحيلاً تماماً لحركة التنوير اليهودية "الهاسكالا" والتي بدأت في ألمانيا والنمسا نهاية القرن الثامن عشر وامتدت إلى باقي أوروبا في القرن التالي والتي تجسد نمط الاستجابة اليهودية الأكثر إنسانية ولكنه الأقل حضوراً لتحديات العصر الحديث. هذه الحركة كانت قد أوجدت فناعة بضرورة القيام بنقد جذري للمجتمع اليهودي الكلاسيكي استلهاماً منها لفلسفة التنوير الأوربي القائلة بأن من لا يتعلمون من التاريخ محكوم عليهم بتكراره، ولذا فقد خلصوا إلى أن على جميع اليهود الذين يريدون فعلاً تخلص أنفسهم من طغيان الماضي اليهودي الانعزالي أن يتجاوزوه إلى أفاق النزعات الإنسانية الليبرالية في مجتمعاتهم، وهذه الاستجابة هي ما عبر عنها العالم الفيزيائي العظيم ألبرت آينشتاين برفض فكرة الدولة اليهودية من الأساس قائلاً "إن إحساسي الذاتي بالطبيعة الجوهريّة لليهودية

يصطدم بفكرة دولة يهودية لها حدودها وجيشها ومشروعها للسلطة الدنيوية مهما كانت متواضعة، فمجرد أن نصبح أمة بالمعنى السياسى للكلمة يساوى أننا سنحود عن روحانية طائفنا التى ندين بها لأبائنا^{١١}.

وهى نفسها ما يكشف عنها بجلاء مارتن بوبر أحد أبرز المفكرين اليهود فى القرن العشرين بقوله "لقد برهن هتلر على أن مسار التاريخ لا يساير مسار العقل ولكن مسار القوة، وأنه عندما يكون هناك شعب على قدر من القوة فإنه يستطيع أن يقتل دون عقاب وهذه هى الحالة التى كان علينا أن نحاربها، لقد كنا نأمل فى أن ننقذ القومية اليهودية من خطأ تحويل شعب إلى صنم معبود ولكننا أخفقنا!"^{١٢}

وتتعرض أفكار هذه الحركة لدى تيار "ما بعد الصهيونية" فى دعوته الى مراجعة ونقد وإعادة تأمل التاريخ الرسمى لإسرائيل والذى كان قد كتب وتم اعتماده "رسميا" فى حمى سعى الصهيونية الى بناء الدولة، وحيث لم يكن هناك على الأرض الفلسطينية من اليهود، لا قبل بناء الدولة، ولا بعدها مباشرة قوة أخلاقية / معرفية معادلة تستطيع أو حتى ترغب فى مقاومة أساطير هذا التاريخ الرسمى. ومن ثم كانت الرواية الوجودية المراوغة والزائفة لتاريخ العرب واليهود فى فلسطين، والتى بلغت أوجها فى مقولة "شعب بلا أرض، لأرض بلا شعب" والتى تغذت على هزيمة العرب وانتصار إسرائيل الكاسح سواء فى حرب ١٩٤٨م، أو فى حرب ١٩٦٧م التى رسخت لديها وجود إسرائيل الدولة، وفتحت أمامها باب الطموح الى إسرائيل المشروع.

غير ان هزيمتها فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م، ثم الإنتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٨م كانتا بمثابة محطات على طريق

العودة الى منطق الدولة. ولقد تزامن ذلك فيما يبدو مع نمو معرفة جديدة "إسرائيلية" وليس فقط "صهيونية" أو حتى "يهودية" وخاصة فى علوم الاجتماع والتاريخ فكان ذلك إرهابا بطرح تساؤلات جادة وحقيقية على الوعي الإسرائيلى تنامت حتى أخذت فى التسعينيات شكل حركة فكرية أصطلح على وصفها بـ "المؤرخين الجدد" وهى الحامل الثقافى لتيار ما بعد الصهيونية، والتى تقدم الآن النقد الأهم للأساطير الصهيونية حول الغياب العربى عن فلسطين قبل ١٩٤٨م، وتدعوا الى تبنى رواية تاريخية جديدة توائم بين الروايتين العربية، واليهودية شديدتى التناقض لحقيقة وجود كل منهما فى فلسطين.

هذا التيار يؤكد من ناحية على حقيقة الوجود التاريخى لليهود فى فلسطين، ومن ثم على مشروعية الوجود السياسى لإسرائيل ابتداء، ولكن مع اعتراف بوجود فلسطينى مقابل يصبح طرفا فى مشكلة تبحث عن حل. وبهذا المعنى تبقى رواية المؤرخين الجدد داخل إطار الصهيونية لأنها تعترف بمقولاتها عن الذات اليهودية الجمعية، وعن التاريخ اليهودى المشترك، بل وأيضا تعترف بإنجازاتها وجهودها لترسيخ الدولة الإسرائيلية، ولكنها تستحق وصف الما بعد لأنها تعترف بوجود الآخر العربى/الفلسطينى وهو إعتراف له أهميته ليس فقط على مستوى النقد الثقافى لتاريخ الحركة الصهيونية، بل وبالأساس على مستوى التصور السياسى لمستقبل الدولة الإسرائيلية.

ويعتقد هذا التيار بأن السلام ممكن، بل هو الحل الوحيد النهائى والمنطقى، ولكنه كى يكون كذلك يجب أن لا يقوم على منطق القوة وتوازناتها، وانما على على أخلاق القوة والهام التاريخ بحدودها، وبضرورة تكيفها فى النهاية مع مقتضيات المشروعية عند نقطة

لا بد منها لبدء عندها التاريخ في السير سيرا طبيعيا، ليس هادئا تماما، ولا خال من التناقضات، ولكنها تلك التناقضات العادية التي تنتجها الممارسة العادية لأي وجود تاريخي، وليست تلك الإستثنائية التي تثيرها الأسئلة المركبة والصعبة التي تدور أصلا حول شرعية الوجود فتربك حركة الواقع. ويقوده هذا الاعتقاد الى توافق منطقي أيضا على الشك، وربما الرفض للعملية الجارية منذ أوصلو وحتى الآن تحت مسمى "التسوية السلمية" لأنها قطعاً لن تؤدي الى سلام عادل، وبالتالي مستقر. ومن ثم تلتقى أهداف هذا التيار الأكثر إنسانية مع أهداف الإنسانية العربية، ويمكن التعويل عليه في التأثير على نزوعات المجتمع السياسي الإسرائيلي ولكن في اطار سياق جدلي يأخذ فيه الإنسان العربي المبادرة ولا يرتهن بالإرادة الإسرائيلية، بل عليه آنذاك تجاوز حدود المطالب الدنيا الراهنة لشكل وحجم الدولة الفلسطينية حسب القرار ٢٤٢ عام ١٩٦٧م، إلى تلك الحدود القصوى التي أقرها قرار التقسيم عام ١٩٤٧م، والتي تجد تعاطفا لدى بعض أنصار هذا التيار في إسرائيل على منوال ما ذهب إليه "الإن بابية" أحد أبرز عناصر حركة "المؤرخين الجدد" التي تبدو كركيزه ثقافية لتيار ما بعد الصهيونية، وأستاذ العلوم السياسية - كان مهديا قبل عامين بالإحالة للمحاكاة والطرده من الجامعة لمساندته أطروحة دكتوراه لباحث إسرائيلي هو "تيدي كاتز" يكشف فيها عن مذبحه قام بها الجيش الإسرائيلي في قرية الطنطورة الفلسطينية عام ١٩٤٨م - وذلك في كتابه القيم "حرب ١٩٤٨ : فلسطين وأصول الصراع العربي - الإسرائيلي" من أن السلام بين العرب وإسرائيل لن يتحقق على أساس ما جرى في يونيو ١٩٦٧م حيث القرار ٢٤٢ بمبادلة الأرض بالسلام صاغته توازنات القوى، وإنما على أساس قرار التقسيم في ١٩٤٧م وعلى

منطق الدولتين طالما تعذرت إقامة دولة واحدة علمانية وديمقراطية تحت الاسم التاريخي "فلسطين".

وما يذهب إليه بابية لا يجب أن يقصر عنه التطلع العربى فهو ممكن جدا ولعله الممكن الوحيد ولكن بشروطه التى تتطلب ذلك النوع من الجهاد التاريخى الحضارى الذى لم نمارسه بعد فى أفق زمنى مفتوح يضمن التأثير فى الصراع فى سياق إعادة بناء الإنسان العربى، بديلا للجهاد الاستشهادى الفلسطينى المحكوم بضرورات اللحظة وحدها، وغير القادر وحدة على تغيير موازين القوة مع إسرائيل، فالعرب يستطيعون تحمل الوضع القائم لسنوات عديدة وربما عقود دون هزيمة نهائية حتى لو حدثت بعض التراجعات، ولكن عليهم أن يتحملوا وهم يعيدون بناء أنفسهم وصياغة إنسانيتهم استعدادا للحظة الانتصار، فإذا ما أتت كان عليهم رفع سقف مطالباتهم لها على قدر الجهد المبذول لاستدعائها وعلى ذلك النحو الذى يقود إلى سلام بابيه، وليس إلى سلام شارون.

وأما التيار الثانى: فهو الأكثر سفورا وهيمنة ويتمثل فى "الصهيونية الجديدة" الأكثر تطرفا وأصولية من الصهيونية الكلاسيكية، إذ تتبنى بشكل واضح طروحات الاتجاه اليمينى السياسى، بينما تنغمس بشكل أعمق فى الرؤية الأسطورية للدين اليهودى محاولة إستيعاب إتجاه اليمين الدينى، وهو الأمر الذى منح الأخير العنصرى دورا متناميا فى توجية السياسة، بل والمجتمع الإسرائيلى طيلة العقدين الماضيين.

فرغم أن الحريديم ظللوا منذ الهولوكست يحاولون إعادة خلق اليهودية الأوربية، ونظروا للحياة اليهودية القديمة فى أوربا الشرقية على أنها العصر الذهبى وكانوا يسعون الى الإلهام من حاخامات

الماضى العظام، إلا أنهم بحلول الثمانينات كانوا قد تفوقوا عليهم، فلم يكن ليهودى منذ تحطيم المعبد عام ٧٠ ق. م. سطوة الحاخام شاس الذى صار له بحلول عام ١٩٨٨م قيادة حزبين سياسيين كبار، وصار السياسيون يخطبون وده من أجل صوته الحاسم فى الانتخابات^{١٣}.

وقد حصلت الأحزاب الدينية بالفعل على ثمانية عشر مقعدا فى انتخابات ١٩٨٨م. وكنتيجة لهذا وجدوا أن بأيديهم ميزان القوى بين العمل والليكود، وأجبر السياسيون العلمانيون، الذين كانوا قد احتقروا اليهود الأرثوذكس "أى المتشددين التقليديين" ونظروا اليهم على أنهم مفارقة تاريخية ميئوس منها، على الإتيان اليهم وقبعتهم فى أيديهم ليطالبوا اليهم أن يلتحقوا بمعسكرهم لتشكيل الحكومة. وكان الحريديم "أى اليهود الأرثوذكس المتشددون" مازالوا معارضين لدولة اسرائيل كما كانوا من قبل، إذ اعتقدوا أن العلمانيين من اليهود مصممون على تحطيم الدين ونظروا الى عملهم السياسى كشر ضرورى أو فعل دفاع عن النفس، الا أنهم حصلوا بشكل شبه قسرى على سلطة غير مسبقة فى الدولة التى شعروا بأنهم فى حرب معها^{١٤}.

وفى ملعب ياد الياهو لكرة السلة التى تقترب فى اسرائيل من كونها دينا قوميا اذ تمثل هذه الرياضة الحلم الصهيونى بـ "اليهودى الجديد" الذى لم يعد ينحنى وهو صاحب على أجزاء من التلمود فى ميشينا "مكان ضيق للعبادة" رطبة، ولا يلتحف بأردية الأرثوذكسية السوداء، لكنه خلع عنه أرديته من أجل حسن الأداء، ويبدو وقد لوحته الشمس صحيح الجسد، ذا قدرة على التنافس الدولى مع الأغيار وهزيمتهم فى العابهم الخاصة. فى هذا الملعب وفى يوم ٢٦ مارس ١٩٩٠ لم يزدحم الملعب بمشجعى فريق المكابيين أى

"الفريق القومى"، بل بعشرة آلاف من اليهود الأرثوذكس الذين يرتدون الأردية التقليدية الواسعة لكى يسمعوا الحاخام شاس وهو يلقي إليهم بتعليماته بشأن كيفية التصويت فى الانتخابات القادمة. ولم يكن حديث الحاخام الذى استغرق ١٠ دقائق مربكا ومحيرا فقط، لكنه بعث القلق فى نفوس من شاهده من الإسرائيليين على شاشات تليفزيوناتهم اذ لم يتعرض لأى من القضايا التى كانت تسيطر على تفكير بقية الأمة فقد كان واضحا انه لا يبالي بقضايا مثل حقوق الفلسطينيين، والدفاع القومى، وجدوى مبادلة الأرض بالسلام، ولم يكن لديه كلمة طيبة واحدة يقولها فى حق دولة اسرائيل، وبدلا من أن ينظر الى دولة اسرائيل كمخلص، أشار الى الزمن الرهيب والبشع الذى يعيشه الحريديم الآن، ولم تكن الحرب التى اعلن قلقه بشأنها الحاخام هى الحروب العربية - الإسرائيلية بل المعركة الطويلة التى ظل الصهاينة يشنونها ضد الدين اذ قال بانفعال شديد "إن الحرب التى نخوضها ضد من يعادون الموروث لم تبدأ اليوم، فقد بدأت فى زمن الحرب العالمية الأولى، ويعلم سيد العالم وحده ماذا ننتظر؟" إلا أنه لم يساوره الشك فى النتائج حيث أكد أنه "لا يمكن تدمير اليهودى، فقد يحدث أن يقتل، إلا أن الأطفال سيظلون متمسكون بالتوراة"^{١٥}.

كما وجه حديثه الى حزب العمل وأنصاره متسائلا فى سخرية: لعل العمل شىء مقدس؟ ألم يفصلوا أنفسهم عن الماضى ويبحثوا عن تورا جديدة؟ إن هؤلاء الكيبوتزيين "أى أصحاب المزارع الجماعية ذات الإلهام الإشتراكي التى أنشأها العمل مع قيام الدولة كأساس للزراعة الإسرائيلية وللإستيطان أيضا" ليسوا بأفضل من الأغيار، فإنهم لا يعلمون ما هو السبت أو ما هو يوم كيبور. فكيف يمكن أن يوكل لهؤلاء أمر تقدير الأمور الحاسمة والجوهرية التى تواجه الشعب اليهودى؟ مضيفا:

يمكن أن يكون هناك اتفاق مع العمل لأنهم "لا يهتمون بتقوية الدين حين يكونون في الكنيسة، بل يحاولون تمرير قوانين تدمر الدين اليهودي"^{١٦}.

وقد برهنت تلك الحادثة على وجود أمتين في إسرائيل غير مستطيعتين أن تفهم إحداهما لغة الأخرى ولا تتشاركان في أية اهتمامات. وكشفت أيضا عن مشاعر الكراهية لدى اليهود الأرثوذكس ليس فقط نحو الأغيار بل أيضا ضد قرنائهم من اليهود. فأثناء تجواله في منطقة للحريديم بالقدس تذكر الروائي الإسرائيلي المرموق عاموس عوز أن الصهاينة الأوائل كانوا يكرهون اليهود الأرثوذكس وكانوا "يودون نفى هذه الحقيقة من العالم حولهم ومن أرواحهم، فقد صوروا في تفجر للكراهية والبغضاء، هذا العالم كمستنقع، كومة من الكلمات الميتة والأرواح الخاملة". وقد استجاب الحريديم لتلك البغضاء العلمانية بنفس الإسلوب، فقد لاحظ عوز على الجدران في الأحياء التي يقطنها الـ "تيتوري كاراتا" أي حراس المدينة، رسوما لصلبان معقوفة سوداء وكتابات تقول: "الموت للهتريين" قاصدين اليهود العلمانيين^{١٧}.

ومع بداية التسعينيات تدعمت الصهيونية الجديدة "الأصولية"، في اعتقادنا، بدافعين أساسيين:

الدافع الأول: يتعلق بصعود نمط انتاج المعرفة وما يصوغه من إقتصاد رمزي يقوم على مرتكزات ومنتجات الثورة التكنولوجية والمعلوماتية في الحاسبات والهندسة الوراثية، والفضاء، والتي يمكن القول بأنها تؤسس لسياسات تميل الى العنف من حيث أنها تقوم على بناءات اقتصادية صغيرة ومحدودة ولكنها فاعلة انتاجيا وقادرة على مراكمة الثروة، بل إنها تسمح بوجود المنتج الفردي الأكثر معرفة ولكن الأقل تنظيمًا، ما يقرب أبنيتها الإجتماعية من تلك التي سادت الحقبة التقليدية والتي قامت على نوع من التباعد أو العزلة أو الفردية قبل الحديثة قياسا الى الفردية الحديثة أو الناضجة

"الفردانية" التي أنتجتها التنظيمات الكبرى للمجتمع الصناعي الذي نهض سلفا على الثورتين الصناعيتين الأولى والثانية منذ القرن الثامن عشر وحتى سبعينيات القرن العشرين، وذلك على منوال التنظيمات المهنية، والنقابية والمؤسسية، وصولا الى تلك الحزبية على المستوى السياسى المباشر.

ولا شك ان الهياكل الإنتاجية المحدودة وما تفرزه من بناءات إجتماعية مجزئة، وأحيانا مفردة، تعمل على استحضار واستتارة المكونات الأولية فى تركيب الهوية الإنسانية من قبيل المشاعر الدينية، والانتماءات العرقية، والنزوعات القومية الضيقة/العنصرية وغيرها من تلك التى تغذى اليمين الدينى بالتقاليد اليهودية الأرثوذكسية، كما تغذى اليمين السياسى بنزعات التطرف العنصرى، وذلك نحو المزيد من التعصب ابتعادا عن قيم التسلمح، وروح التعايش وقبول الآخر الفلسطينى بما فى ذلك حقه فى إقامة دولته المستقلة على أساس الحل الوسط التاريخى.

أما الدافع الثانى: فهو حركة الهجرة المستمرة الى داخل اسرائيل وخاصة

تلك الموجة التى وصلت الى نحو المليون مهاجر روسى الى اسرائيل عقب الإنهيار السوفيتى والتى تميزت بكثافتها وعمق تأثيرها. فمن المعروف أن المهاجر الجديد الى أى مجتمع وخصوصا عندما يكون مجتمعا استيطانيا، ودولة عنصرية تقوم على الأسطورة السحرية أو الرؤية الدينية للعالم كاسرائيل، إنما ينزع الى التشدد فى تبنى أساطيرها وميولها العنصرية والمزايدة على المستوطنين الأقدم منه، ربما تأكيدا لولائه لمجتمعه الجديد، وربما كسبا للمنافع التى قد يولدها ذلك الانتماء المبالغ فى تجسيده، ولكنه فى كل الأحوال اشباعا للهوية الذاتية لديه والتى تبدو فى حالة عدم اشباع نتيجة انتقاله من مجتمعه الأقدم "الإتحاد السوفيتى"

بكل ذكرياته وشجونه وطرائقه فى العيش، الى مجتمع جديد "إسرائيل" له طرائقه النقيضة التى تحتاج للتكيف معها الى الإمعان كثيرا فى تبنى أساطيرها ومعتقداتها، كغضاريف ومفاصل قادرة على الربط والدمج بين الذات الفردية للمهاجر، وبين الوطن الجديد.

أضف الى ذلك أن انهيار البنية الإيديولوجية الشيوعية نفسها والتى كانت قد قمعت مكونات الهوية الدينية والقومية لدى الشعوب السوفيتية سابقا وعلى رأسها روسيا، قد ولدت الحاجة لدى الجميع الى عملية إحياء دينى وقومى سواء كانوا مسيحيين أرثوذكس فى المجتمع الأم، أو يهود فى المجتمع الجديد "الإسرائيلى" فى مرحلة ما بعد الإنهيار الشيوعى حيث لحظات الانتقال طالما تميزت بنوع من الحدة فى التعبير عن الهوية التقليدية، والرغبة العارمة فى اشباعها.

وقد أدت ضخامة هذه الموجة نفسها والتى بلغت نحو المليون يمثلون نسبة عالية من المجتمع الإسرائيلى الآن "نحو ٢٠%" مع امتداد متصور لتأثيراتها نحو المتعاملين معهم والمحيطين بهم فى المجتمع، والساعين من السياسيين فى الأحزاب الإسرائيلية الى كسب ودهم وضمن تأييدهم فى الانتخابات التى جرت فى العشرة أعوام الأخيرة، قد أدى الى تعديل فى المزاج السياسى والنفسى العام للشخصية الإسرائيلية فى اتجاهين رئيسيين:

الإنحياز الأول: هو إعادة هيكلة النظام السياسى الإسرائيلى إبتعادا عن هيمنة القوى العلمانية اليسارية التى قادها دوما حزب العمل عبر ثلاثة مراحل مختلفة^{١٨}.

فى السنوات الأولى لقيام الدولة كان المسرح السياسى حكرا على حزب العمل والتى كانت قيادته تتألف من أفراد ذوى أصول أوروبية، ومارس حزب العمل سيطرته ليس فقط من خلال الآلية التشريعية للكنيست بل أيضا من خلال السيطرة التى استحوذت عليها نقابات العمال

والشركات والمؤسسات الحكومية والتي وفرت فرصا هائلة للدعم والمساندة.

وفي عام ١٩٧٧ واجهت هيمنة حزب العمل تحديا تمثل في ظهور مجموعة من الأحزاب المحافظة التي اتحدت تحت اسم الليكود، وبالإضافة الى انه وفر بدائل لسياسات حزب العمل فقد كان أكثر اهتماما بتوسيع المستوطنات اليهودية في الأراضي التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧، وبالحد من سيطرة حزب العمل على المؤسسات الحكومية. وهكذا نال الليكود اعجاب عدد من النخبين اليهود الذين كانوا قد هاجروا من دول مثل المغرب واليمن والعراق، ونجح الليكود في كسر احتكار حزب العمل للسيطرة في اسرائيل وتمكن من الاحتفاظ بالسلطة لسنوات طويلة سواء بصورة منفردة أو في إطار ائتلاف مع حزب العمل.

وبدأت المرحلة الثالثة مع حدوث تغيير في القوانين الانتخابية اعتبارا من عام ١٩٩٦ والتي اتاحت إمكانية الانتخاب المباشر لرئيس الوزراء. ورغم ان هذا النظام كان يهدف أساسا الى جعل رئيس الوزراء أقل اعتمادا على ائتلافات برلمانية غير مستقرة في الكنيسة، إلا أنه كان له تأثيره غير المتوقع في تشجيع زيادة عدد الأحزاب الصغيرة في انتخابات عام ١٩٩٦ ثم ١٩٩٩ حيث خسر كلا من العمل والليكود مقاعد كثيرة في البرلمان لصالح أحزاب جديدة ذات توجهات عرقية ودينية ولا سيما حزب "إسرائيل بعاليا" والذي يمثل أساسا المهاجرين الروس، وحزب شاس الذي يشغل الآن الترتيب الثالث بالنسبة لعدد المقاعد في الكنيسة.

وعلاوة على حالة عدم الاستقرار التي يسببها انتشار الأحزاب الصغيرة، فإن الهوية الليبرالية الديمقراطية لإسرائيل تصبح موضع شك من جانب بعض الأحزاب الدينية والتي تريد منح مزيد من السلطة للجماعات والمؤسسات الدينية. وكمثال على ذلك تحدث المنافسة في الانتخابات حول المناصب الخاصة بالمحاكم الدينية والعلمانية، وذلك على الرغم من حقيقة

ان المحاكم الدينية لديها بالفعل سلطة اكبر فى اسرائيل من تلك التى كانت تتمتع بها فى معظم الأنظمة الديمقراطية الليبرالية الأخرى.

أما الاتجاه الثانى: فنحو المزيد من التطرف فى مواجهة الآخر العربى خروجاً على منطق الحل الوسط التاريخى للصراع العربى - الإسرائيلى الذى سعى اليه معسكر حزب العمل منذ التسعينات، والذى كان قد أنتج صيغة مدريد، واتفاقات أوسلو، ووادى عربة وغيرها.

ففى استطلاع للرأى نشره معهد جافى للدراسات الإستراتيجية بجامعة تل أبيب^{١٩} وجد أن هناك الكثير من المؤشرات الدالة على ذلك الإنجراف الى اليمين، فبعد أن كان هناك ٦٧% من الإسرائيليين يعتقدون عام ١٩٩٩م فى امكانية التوصل الى سلام مع الفلسطينيين والدول العربية نجد ان ٢٦% فقط يعتقدون ذلك فى عام ٢٠٠٢م، وكذلك نجد أن التأييد لاتفاقيات أوسلو قد إنخفض الى ٣٥% بعد ان كان ٥٨% عام ٢٠٠١م، وهبط الاعتقاد فى أن الفلسطينيين يريدون السلام من ٦٨% عام ١٩٩٩م الى ٣٧% عام ٢٠٠٢م، وتوصل ٦٨% من الإسرائيليين الى أن السلام مع الفلسطينيين مستحيل بعد أن كانت نسبة القائلين بذلك ٥٦% عام ٢٠٠١م، وكذلك فإن نسبة ٧٧% يعتقدون بأن هناك فرصة لنشوب حوب جديدة مع الدول العربية خلال ٣ سنوات مقارنة ب ٣٩% كانوا يرون ذلك عام ٢٠٠٠م.

وكانت أصولية مائير كاهانا مؤسس "حركة كاخ" أو "هكذا!" التى أعلنت هدفها الرئيسى فى طرد العرب وإجبارهم على مغادرة أرض اسرائيل، قد عبرت عن هذه الاتجاه المتطرف منذ الثمانينات، فهى النموذج الأصلى لكل الأصوليات، ويهودية إختزالية إنتقائية بشكل لا هوادة فيه لدرجة أنها أصبحت كاريكاتيراً قاتلاً للعقيدة، إذ أوضح كاهانا لأحد محاوريه "أنه لا توجد رسائل عديدة لليهودية، هناك رسالة واحدة فقط وهى أن تفعل ما أراد الرب". والرسالة المقصودة هنا ببساطة هى أن "الرب أرادنا أن

نأتى الى هذه البلدة وأن ننشئ دولة يهودية". واتخذ المبدأ اليهودى عن القداسة أى العزلة والذي كان يحتفى بتمييز الأشياء عن طريق الطقوس عند كاهانا معنى سياسيا فريدا وهو "أن الرب يريد لنا أن نحيا فى هذه البلدة - فلسطين - وحدنا منعزلين كى لا يكون لنا سوى القدر الضئيل من الإتصال بما هو أجنبى". وكان هذا يعنى ان على العرب ان يذهبوا، ورأى أن وعد الرب لإبراهيم لا يزال يصلح الآن كما كان صالحا فى عصر النبوة، والنتيجة هى أن العرب مغتصبون، وبهذا أصبح المنطق الأسطورى لسفر التكوين برنامجا سياسيا للتطهير العرقى، وأدت هذه الرؤية الإختزالية منطقيا الى رؤية مشيخانية تمثل رعبا خالصا، فقد وقف اليهود على حافة الخلاص بعد حرب الأيام الستة وكانت مهمتهم واضحة بسبب التوجه الأوحد لليهودية، فكان عليهم ان يحتلوا تلك المناطق ويطردوا العرب ويمحوا مقت الأغيار "قبة الصخرة" من على جبل الهيكل. فلما أنهم فعلوا هذا لأتاهم الخلاص بهيجا وبدون مشقه. وبسبب فشل اسرائيل فى فعل هذا، ورغم أن المخلص سيأتى، إلا أن هذا لن يحدث سوى بعد كارثة هائلة مضادة للسامية أسوأ بكثير من الهولوكست والتي ستجبر اليهود فى النهاية على إطاعة أمر الله الوحيد بالإستيطان فى اسرائيل كلها^{٢٠}. ونلاحظ هنا حدودا قاتلة وغير متصورة لعدم إستواء المنطق الإنسانى لدى الصهيونيتها الجديدة. فإذا كانت وطأه شعور اليهود بعذاباتهم فى السياق الأوروبى قد أشعرتهم بالصدمة فى الإنسانية الأوربية، فقد كان واجبا أيضا أن تقودهم إلى رفض تكرار مثل هذه العذابات لغيرهم ناهيك عن أن تكون بأيديهم هم إما لدافع أخلاقى بحت، أو لدافع تاريخى يؤكد على أن العرب الذين يتعذبون بأيديهم اليوم فى فلسطين، كانوا أكثر الثقافات الإنسانية تسامحا معهم، أو حتى لدافع نفعى كى لا يكون هناك مظلومون آخرون مستعدون دوما للثأر منهم، ولكنهم على النقيض يفعلون كل ما يؤلم ويعذب الإنسانية العربية ويورطها فى صراع لا نهاية له.